الآيات الموجهة في القرآن

لفضيلة الأستاذ محمد المدني
عميد كلية الشريعة

القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه إلى الصراط المستقيم . أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . والذي وضع السنن والنواميس لهذا العالم . ما نعرفه منه وما لم نزل نجهله . والذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

والقرآن في عظمته . كالكون في عظمته : كلاهما آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فكل من فكر في الكون ممن أوتوا العلم تجلت له عظمة هذا الكون وزاد علمه بقوانينه المطردة الثابتة الدالة على قدرة مبدعه . ومازال الذين أوتوا العلم يصلون كل يوم إلى جديد منه يملأ القلوب إيمانا . ويضرب في وجوه الملحدين وأقفيتهم : حتى لقد أصبح الإلحاد في عصرنا الحاضر ضربا من هوس الجهلاء ما نظن أن عاقلا يرضاه لنفسه . ولقد يأتي على الناس يوم يقال فيه : كان الناس قديما يلحدون ويشكون في وجود إله قادر حكيم عليم ـ فيكون هذا القول عجباً كما نخبر نحن الآن عن أعاجيب معتقدات أهل الجاهلية الأولى .

والقرآن الكريم ـ في بابه أيضاً ، وفي غرضه الذي يرمي إليه ـ له مثل هذه العظمة الكونية ، ومثل هذه الدلالة على قدرة الله ، وعلم الله ، ورحمة الله الله ، فكل من فكر فيه وتأمله ودرس نواحيه ، تجلت له عظمته . وتكشفت له بعض أسراره . ولأمر ما حفظه الله من الضياع والتحريف والتبديل وضمن له البقاء والخلود . فهو صنو هذا الكون في عظمته ،

وهو نظير فى دلالته ، وهو قرينه الذى يبقى معه أبد الدهر ، وإن حاول بعض المساكين من الكارهين والحاقدين أن يزيلوه أو يحرفوه أو يصرفوا عنه أو يشككوا فيه ، وإنما هو نور الله وبرهانه : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وإنى لأعتقد أنه سيأتى على الناس يوم يقولون فيه : لقد كان بعض من قبلنا ، يشكون فى القرآن ، ويعرضون عن هدى القرآن ، ويتخذون هذا القرآن مهجوراً ، فيعجب السامعون من هذا القول ، كما نعجب نحن الآن ممن كانوا ينكرون « كروية الأرض » .

ولقد وصف الله تعالى كتابه فى جملة منه مؤلفة من سبع كلمات ، ولكنها جامعة كافية شافية ، تلك هى قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

ومن مظاهر تلك الهداية التى هى أقوم ما تراه فيه من آياته لها قوة توجيهية دافعة ، تحسب كل آية منها فى بابها وغرضها الذى سيقت له ـ وكل جملة من ايه ـ قانوناً لا يحتاج معه إلى قانون ، ودستوراً ثابتاً لا يمكن أن يدركه البطلان أو التعديل ، كأنه ناموس من نواميس هذا الكون .

ولما كنا بصدد البحث فى سورة النساء وكانت هذه السورة غنية بهذه الآيات التوجيهية القوية التى ترمى إلى طبع المجتمع بطابع معين من الأخلاق والسلوك وقواعد التعامل ، فإننا نجعل من آياتها موضوعات ، ومثلا لهذا اللون من التوجيه القرآنى ، فنحقق بذلك غرضين : غرض الدرس لناحية من السورة ، وغرض التمثيل لهذه الظاهرة القرآنية :

* * *

وقد أحصينا الآيات التوجيهية فى هذه السورة فوجدناها تزيد على الستين وذلك غير الآيات التى سنتحدث عنها فى غير هذا الصدد ، يراد به بعث الأمل والاطمئنان النفسى فى أفراد المجتمع .

وتشترك هذه الآيات كلها فى أن لها رسالة فى المجتمع واحدة ، وفى أن لها أسلوباً معيناً من شأنه أن يؤثر تأثيراً قوياً ، متجدداً ، منطبقاً على آلاف الحالات فى كل مجتمع .

فأما الرسالة الواحدة المشتركة بين هذه الآيات ، فهى وضع دوائر ومناهج كلية يرجع إليها الناس فى أهم النواحى التى يدور حولها نشاط المجتمع وإن شئت فقل : إن هذه الآيات بمثابة « منارات » تنبعث منها أضواء كاشفة متجددة ، متحركة تهدى كل من توجه إليها .

وأما أسلوبها الواحد المعين ، فهو أنها أخرجت كلها مخرج الأمثال التى تعتمد اللفظ الوجيز والمعنى الوسيع ، والصلاحية للانطباق على كثير من الصور .

* * *

ونورد هنا بعض هذه الآيات مرتبة بحسب ورودها فى سورة النساء ، مشفوعاً كل منها بما يبين غايتها وأهميتها التوجيهية فى المجتمع :

(١) « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا — ١ »

هذا هو ختام الآية الأولى من السورة ، وقد سبق بتقرير مبدأ « المساواة » المترتب على أن الناس جميعاً ناشئون من أب واحد ، وأم واحدة ، ولهم رب واحد ، والناحية التوجيهية فى هذا الختام ذات شعبتين :

إحداهما : راجعة إلى العقل ، وهى الأمر بتقوى الله الذى خلق الناس والذى هو ربهم ، أى مربيهم بفضله ونعمه ، والذى له بحكم الفطرة فى نفوس خلقه كل مهابة وإجلال ، حتى إنهم ليتساءلون به ، أى يسأل بعضهم بعضاً باسمه جل شأنه ، فالعقل السليم ، والتفكير المستقيم ، يؤديان إلى هذه التقوى ، ويحملان الإنسان على التمسك بها .

والشعبة الأخرى : راجعة إلى العاطفة . فان الإنسان إذا عرف أن بينه وبين إخوانه فى الإنسانية رحما ، وأن هذه الرحم تناديه أن يصلها، ويعرف لها حقها ، وأنه أيضاً كثيراً ما يسأل إخوانه بها ، ويناشدهم حقها ، فان عاطفته تتحرك وتشب ، فتكون الرحمة ، ويكون الحنان ، ويكون التعاون .

فالله - جلت حكمته - لا يكتفى بأن يقيم المجتمع على مبدأ المساواة ، فان المساواة لا تستلزم المراقبة ، ولا تستلزم الرفق والحنان ، ولكنه سبحانه يوجه إلى أن يكون لهذه المساواة جناحان من مراقبة الله ، ومن عاطفة الرحم ، فالأول يحول بين المتساويين وأن يظلم أحدهما الآخر ، والثانى يحث كلا منهما على معاملة الآخر بما هو إحسان وفضل يناسبان الأخوة والرحم .

وبهذه الثلاثة : القلب (وهو المساواة) والجناحان (وهما التقوى والرحم) يشق المجتمع طريقه فى الحياة قويا عادلا متعاونا متراحما .

ثم إن التعبير بكلمة « الأحام » مجموعة هكذا ، قد يساعد على أن تتوسع فى المعنى المراد منها . فان المجتمع ذو شائج ، ليست فقط من الرحم المادية) رحم الأمهات والآباء ، ولكنها أيضاً من الصلات التى تفرضها ظروف الحياة ، وتدعو إليها طبيعة الإنسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا مدنيا ، لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولا يمكنه أن يستغنى عن سنخه .

وهنا تتسع دائرة الأرحام ، فالزملاء فى علم بينهم رحم من هذه الزمالة يجب أن ترعى ، ويعرف لها حقها ، والزملاء فى صناعة كذلك وفى وطن كذلك . وفى جوار كذلك ، وهكذا تتعدد الأرحام بتعدد الصلات والزمالات ، فتتكون منها روابط عاطفية من شأنها أن تيسر أمر المجتمع ، وأن تشيع فيه الرفق والإحسان والبر ، وأن تنفى عنه العسر والحرج والأثرة .

وكل هذا فى ظل رقابة الله التى توحى الآية بما يجب على المؤمنين من استشعارها دائما « إن الله كان عليكم رقيبا » .

(٢) « ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف — ٦ » .

جاءت هاتان الجملتان فى سياق إرشاد الأوصياء إلى ما يسلكونه فى شأن اليتامى .

والمعنى التوجيهى هنا يرجع إلى الإيحاء باتباع هذا المبدأ فى كل حالة اجتماعية حسبية يسند فيها عمل إصلاحى لمن يختار له كعضوية الجمعيات الخيرية ، أو جمعيات التربية والتعليم ، أو المجالس النيابية ، أو مجالس المصالحات أو نحو ذلك .

فالقاعدة التى وجهتنا إليها الآية هى . أن يؤدى القادرون الأغنياء ما يختارون له من أمثال هذه الأعمال حسبة لله تعالى دون مقابل ، أما من كان فقيراً محتاجا فليأخذ الأجر على ذلك ، أو المكافأة بالمعروف : والمعروف فى مثل هذا أن يكون هناك جانب من التبرع بالجهد ، وجانب من المكافأة عليه ، ولهذا لا تقدر المكافأة فى مثل ذلك تقديراً سخيا ، وإنما تقدر فى شىء من التحفظ والرعايه للصالح العام .

* * *

(٣) « تلك حدود الله — ١٣ » .

جملة على إيجازها لها قوة إيحائية توجيهية ، فاذا استقر معناها فى مجتمع ما وقى كثيراً من السيئات والمنكرات والجرائم والصعاب ، لأنه ليس هناك ما يثير فى المجتمعات الفتن ، أو يصيبها بالقلق ، أو يفسد عليها جو الهدوء والأمن والقرار ، إلا تعدى حدود الله ، وحدود الله هى الخطوط التى رسمها للناس فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولم تأت الشريعة إلا لترسم

هذه الخطوط وتأمر الناس بالوقوف عندها ، وتنبههم أن يتخطوها أو يقربوها

فلو أن هذا المعنى التوجيهي كان شعاراً لكل فرد في مجتمعه ، وفيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أعضاء أسرته ، وفيما بينه وبين ربه ، لكان عليه أن يسائل نفسه . هل أفرط أو فرط ؟ هل خرج عما ينبغي لمثله ؟ هل حكم حدوده هو ومقاييسه هو . أو حدود الله ومقاييس وشريعته .

ولا ينبغي أن يفهم أن حدود الله هي خطوط تحكمية أمر الناس أن يلتزموها ويقعوا عندها ، دون أن يكون لها داع من صلاحهم وخيرهم إلا ينبغي أن يفهم ذلك فان الإسلام لا يأتي أي إصلاح ، ولا يدعو لا إلى ما هو خير وبر ، ولا ينهى إلا عما هو فساد وشر ، وحيثما تكون المصلحة فثم أمر الله ، وحيثما تكون المفسدة فثم نهي الله ، غير أن الله تعالى لم يترك الناس تقدير المصالح والمفاسد على حسب الأهواء ، واختلاف النزعات والآراء ، ولكنه بين وهدى إلى جنس ما يعتبر ، وجنس مالا يعتبر ، مما يحفظ على الشريعة طابعها وقواعدها ومثلها العليا ، ويجعلها ثابتة أمام الأهواء ، متأبية عن مجاراة الذين يريدون أن يطوعوها لمقاييسهم ومثلهم وما تسيغه أذواقهم ونظراتهم ؛ فان هذه الشريعة قائدة وليست مقودة ، وإن الله قد شرعها عن علم وحكمة ، ولم يضعها موضع التجارب كالقوانين البشرية ، والتقاليد المتقلبة .

وإذن فالمبين الذي يجب أن يسري في المجتمع وأن يعتنقه جميع أفراده وجماعاته وتشكيلاته هو : تلك حدود الله .